مدخل
إلى كتاب التوحيد

لعل من المناسب والمفيد - قبل الشروع في شرح أبواب الكتاب - أن أتحدث عن بعض المسائل التي تُعد مدخلا في دراسة هذا الكتاب، وقد جعلتُها في مبحثين:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للمؤلف:

أولا: نسبه ومولده ونشأته:

هو الشيخ ناصر السُّنة وقامع البدعة الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرَّف النَّجْدِيُّ التَّمِيمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وُلد سنة خمس عشرة ومئة وألف (١١١٥هـ) في بلدة «العُيَيْنَة»، وهي بلدة قريبة من الرياض، ونشأ في بيت علم، وظهرت عليه علامات النَّجابة والنبوغ من صغره؛ فحفظ القرآن - على يد والده - قبل بُلوغه العاشرة، ثم درس عليه الفقه والتفسير والحديث، واعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأثَّر ذلك على منهجه العلمي في كتبه كما هو مُلاحظ.

رحل في طلب العلم إلى مكة، فحَجَّ، وأخذ عن بعض علماء الحرم، ورحل - أيضا - إلى المدينة وأقام بها مُدة، ثم رحل إلى العراق، وأقام في البصرة وأخذ

عن علمائها، ثم إلى الزُّبير والأحساء، وكان في رحلاته طالبا للعلم، داعيا إلى الله، متفَقِّها في الدِّين.

ثانيا: من أبرز شيوخه:

والده الشَّيخ عبد الوهاب بن سُليمان، والشَّيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافِعي، والشَّيخ محمد حياة السِّندي، وغيرهم.

ثالثا: من أبرز تلاميذه:

أبناؤه الشَّيخ: علي، وحُسين، وعبد الله، والشَّيخ حسين بن غنَّام، وحفيده عبد الرحمن بن حسن، وغيرهم - رحمهم الله جميعا -.

رابعا: آثار الشيخ ومؤلفاته:

صنَّف الشيخ عددا من المؤلَّفات؛ من أشهرها: هذا الكتاب الذي نحن بصَدَد دراسته «**كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**»، وكتاب «كشف الشبهات»، و«الأصول الثلاثة»، و«مختصر زاد المعاد»، و«مسائل الجاهلية»، وغيرها.

خامسا: وفاته:

تُوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ست ومئتين وألف (١٢٠٦هـ) بعد حياة حافلة بالعطاء والجهاد، والدعوة إلى الله، ونشر التوحيد، ومحاربة الشرك والبدع، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجمعنا به في واسع جناته.

○○○

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب:

لعلِّي أُسلِّط الضوء على هذا الكتاب المبارك من عدة جوانب:

أولا: موضوع الكتاب:

الكتاب يدور حول موضوعين رئيسين؛ هما:

١- بيانُ ما بعث الله به رُسُلَه من توحيد العبادة، مقرونا بالأدلة من الكتاب والسُّنة.

٢- بيان ما يُنافي هذا التوحيد بالكلية من الشرك الأكبر، أو يُنافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وبيان ما قد يُفضي إلى ذلك من الوسائل والذرائع.

ثانيا: منهج الكتاب، وميزاته:

- **الكتاب مرتب على الأبواب، وكل باب يتضمَّن ثلاثة أمور:**

١- الترجمة التي هي العنوان؛ كقوله: «باب فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب».

٢- النصوص والآثار، أي: الآيات، والأحاديث، وآثار الصحابة والتابعين، التي تدلُّ على مقصود الباب.

٣- المسائل، وهي: خلاصة ما يحتويه الباب، وهذه المسائل يَصِحُّ أن تُسمى «**فوائد**». وهي تختلف - قِلَّة وكثرة - من باب إلى آخر؛ فقد بلغت في أحد الأبواب ثلاثين مسألة، ولم تزد في باب آخر على اثنتين(١).

وأما ميزات الكتاب:

فمنها: أن بناءه قائم على الآيات والأحاديث، ليس فيه حشو، ولا تكرار، ولا تطويل، وإنما هو آيات وأحاديث، مع التعليق عليها ببعض الفوائد والمسائل.

ومنها: حُسن الترتيب، فهو مرتب على أبواب متسلسلة مترابطة، آخذ بعضها بحُجَز بعض.

ومنها: ما فيه من نُقول مختصرة مفيدة ينقلها المؤلف عن بعض أئمة الإسلام، كالإمام البغويِّ، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والذهبيِّ، وغيرهم.

ويُعدُّ هذا الكتاب من توفيق الله - تعالى - للشيخ؛ حيث لا يُعرف مصنَّفٌ على منواله من حيث الجمعُ والتَّصنيف، وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا الكتاب فيه شبه بصحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) بلغ المجموع الكُلي للمسائل في الكتاب كله: إحدى وتسعين وخمس مئة (٥٩١) مسألة، وقد اعتنى بها بعض أهل العلم، وأفردها في مؤلَّف خاص، ومنهم الشَّيخ عبد الله الدُّويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد».

ووجه الشبه: أن كتاب التوحيد مرتب على الأبواب على طريقة مقاربة لطريقة الإمام البخاري في ترتيب كتابه. فالشيخ يضع ترجمة لكلِّ باب، ثم يذكر تحت الترجمة طرفا مما يتعلق بها من الآيات والأحاديث، وربما أتبع ذلك بذكر بعض الآثار، ثم يعلِّق بفوائد ومسائل من عنده توضِّح المقصود، وهذا مشابه جدًّا لطريقة الإمام البخاري في ترتيب «الجامع الصحيح».

وقد نفع الله بهذا الكتاب نفعا عظيما، وبارك فيه ببركة قصد المؤلف - والله تعالى أعلم -. وإن كان هناك من يطْوِي الحقد والحسد على هذه الدعوة، ويُنفِّر منها؛ فهذا لغرض في نفسه وبُعد عن الحق.

فائدة لطيفة:

روى الشَّيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الشيخ عبد الرحمن البكري[1] أنَّه قال: (كنت بجوار مسجد في الهند، وكان فيه مدرس إذا فرغ من تدريسه لعنوا ابن عبد الوهاب، وإذا خرج من المسجد مرَّ بي، وقال: «أنا أُجِيد العربية، لكن أحب أَن أَسمعها من أَهلها»، ويشرب من عندي ماءً باردًا. فأهَمَّني ما يفعل في درسه!

قال: فاحتلتُ بأن دعوتُه، وأخذت «**كتاب التوحيد**» ونزعت ديباجته ووضعته على رف في منزلي قبل مجيئه، فلما حضر قلتُ: أتأذن لي أَن آتي ببطيخة؟ فذهبت، فلما رجعت إذا هو يقرأ ويهُزُّ رأسه! فقال: «لمن هذا الكتاب؟ هذه

(١) وهو أحد طلبة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره.

التراجم شبه تراجم البخاري! هذا - والله - نفَس البخاري؟!» فقلت: لا أدري! ثم قلت: ألا نذهب للشيخ الغزوي لنسأَله - وكان صاحب مكتبة، وله رد على جامع البيان - فدخلنا عليه فقلت للغزوي: كان عندي أوراق سأَلني الشيخ من هي له؟ فلم أَعرف، ففهم الغزوي المراد، فنادى من يأْتي بكتاب «مجموعة التوحيد»، فأُتي بها فقابل بينهما، فقال: هذا لمحمد بن عبد الوهاب. فقال العالم الهندي مغضبا، وبصوت عال: «الكافر؟!» فسكتنا وسكت قليلا. ثم هدأ غضبُه فاسترجع. ثم قال: «إن كان هذا الكتاب له فقد ظلمناه!».

ثم إنه صار كُلَّ يوم يدعو له، ويدعو معه تلاميذُه. وتفرق تلاميذ له في الهند، وإذا فرغوا من القراءة دعوا جميعا للشيخ ابن عبد الوهاب»[1] اهـ.

ثالثا: مكان تأليف الكتاب:

ذكر بعض العلماء أن الشيخ ابتدأ تأليف هذا الكتاب - وهو أشهر كتبه وأجلُّها - في البصرة؛ لما رأى من بعض مظاهر الشرك، والإخلال ببعض واجبات التوحيد، فانقدحت فكرة الكتاب في ذهنه، وشرع في جمع مادته. ثم تفرَّغ لإتمام الكتاب وتحريره بعد عودته إلى نجد، وإقامته ببلدة «حُرَيْمِلاء» الواقعة على بُعد نحو ثمانين كيلو متر من شمال غرب الرياض.

---

(١) «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ» (١/ ٧٥-٧٦).

رابعا: إحصاءات حول الكتاب:

بلغ مجموع أبواب الكتاب ستة أو سبعة وستين بابا، على خلاف في المقدمة: هل تعدُّ بابا أم لا؟ والأمر في ذلك قريب.

وقد اشتملت تلك الأبواب على اثنتين وستين ومئة آية، وخمسة وعشرين ومئة حديث، وستة وثلاثين أثرا، وإحدى وتسعين وخمسمئة مسألة.

خامسا: ثناء العلماء على الكتاب، وعنايتهم به:

قال الشَّيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، وهو حفيد المصنِّف وصاحب أول وأكبر شرح لهذا الكتاب **(تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد)**، قال عن هذا الكتاب: «هو كتاب فرد في معناه لم يسبقه إليه سابق، ولا لحقه فيه لاحق»[1].

وقال الشَّيخ عبد الرحمن بن حسن، وهو حفيد المصنف أيضا: « جمع على اختصاره - يعني كتاب التوحيد - خيرا كثيرا، وضمَّنه من أدلة التوحيد ما يكفي من وفَّقه الله، وبيَّن فيه الأدلة في بيان الشرك الذي لا يَغفِره الله»[2].

وقال عنه الشَّيخ عبد الرحمن بن قاسم: «ليس له نظير في الوجود، صار بديعا في معناه، لم يُسبق إليه، علما للموَحِّدين، وحجة على المُلحِدين، واشتهر

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص١٢.

(٢) «الدرر السنية» (٤/ ٣٣٩).

أي اشتهار، وعكف عليه الطلبة، وصار الغالب يحفظه عن ظهر قلب، وعمَّ النفع به»[1].

وقد دأب العلماء على الوصية بهذا الكتاب: حفظا، ودراسة، ومذاكرة، وهي وصية جديرة بالاعتناء لمن نصح لنفسه، وأراد نجاتها، فاجتهد - يا طالب العلم - في حفظ الكتاب، وفهمه، وأعد عليه الكرَّة بعد الكرة، واعتن به علما وعملا، بتحقيق التوحيد وتكميله، واحذر مما ينقِصُه أو يخدشه، فالنجاة في الدار الآخرة بالتوحيد الصحيح المستقى من معين الكتاب والسنة.

ومما يدل على عناية العلماء واحتفالهم به: كثرة الشُّروح والتعليقات والحواشي عليه، حيث زادت على ستة وثلاثين كتابًا[2].

ونظم الشَّيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الثناء على الكتاب فقال:

قـــد ألَّـــفَ الشَّـــيخُ في التوحيـــدِ مختـــصرا
يكفـــي أخـــا اللُّـــبِ إيضـــاحا وتِبيانـــا
فيـــهِ البيـــانُ لتوحيـــدِ الإله بـــما
قـــد يفعَـــلُ العبـــدُ للطاعـــات إيمانـــا
وقُـــل جُـــزى اللهُ شـــيخَ المســـلِمين كـــما
قـــد شـــاد للمِلَّـــة السَّـــمْحاء أركانـــا[3]

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص ٧.

(٢) ينظر: «عناية العلماء بكتاب التوحيد» لعبدالإله الشايع، ص٥٢.

(٣) «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» ص٣.

وقال الشَّيخ أحمد بن مُشرَّف:

وألَّـــــفَ في التوحيـــــدِ أوجـــــزَ نبـــــذةٍ

بهـــا قـــد هَـــدى الـــرحمنُ للحَـــقِّ مَـــن هُـــدِي

نصوصـــا مِـــن القـــرآن تَشـــفِي مـــن العَمـــى

وكـــــلِّ حـــــديث للأئمـــــة مســـــنَدِ[1]

سادسا: منهج شرح الكتاب:

عادة ما يميل الشرَّاحُ إلى أحد منهجين:

أولا: المنهج التحليلي: الذي يقوم على الاعتناء بتحليل ألفاظ النصوص، وشرحها نصا نصا.

ثانيا: المنهج الموضوعي: الذي يقوم على الاعتناء بموضوع الباب، من غير الوقوف كثيرا عند ألفاظ النصوص.

وسيكون التَّوجه في هذا الشرح - بإذن الله تعالى - إلى المنهج الثاني (الموضوعي)، وذلك على النحو التالي:

---

(١) السابق، ص٤.

١- إيراد نص الباب وبيان ما يشتمل عليه من آيات وأحاديث وآثار، وربما جمعتُ بابين أو أكثر إذا كان بينها وحدة موضوعية؛ لأن هذا أحسن وأنفع في جمع أطراف الموضوع، وضبط جوانبه.

٢- شرح الباب - أو الأبواب التي تشترك في موضوع واحد -، مقسِّما الشرح إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام:

أذكر فيه مقصود الباب بعبارة مختصرة، وهو قريب مما يعبِّر عنه بعض أهل العلم بقولهم: «مناسبة الباب لكتاب التوحيد».

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية:

أتناول فيه الموضوعات الرئيسة التي اشتمل عليها الباب، مبيِّنا ما يتعلق بها من أحكام وأقسام وفوائد وضوابط، وهذا الفصل هو لُبُّ الشرح وأساسه.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب:

أُبيِّن فيها جملة من الفوائد والمعاني التي اشتملت عليها نصوص الباب، مع بيان دلالة هذه النصوص ومناسبتها لترجمة الباب.

وهذه الفصول الثلاثة: من أتقنَها وأحسن فهمها، فقد أسس لنفسه علما مؤصلا نافعا في أبواب التوحيد، ويبقى عليه تقويته وتعزيزه بمطالعة الشروح والرسائل والفتاوى في هذا الباب، ثم الاجتهاد في تنزيل الأصول والقواعد على الحوادث والوقائع.

وهكذا يكون البناء العلمي: أن يعتني الطالب بالتأصيل، ثم يرفع البناء ويكمله بالقراءة، لا أن يخوض الطالب في أمَّات الكتب دون أساس راسخ في العلم الذي يقرأ فيه.

وقد رأيتُ أن يخرج الشرح في نسختين:

الأولى: النسخة التعليمية:

وتضم الشرح كاملا، إضافة إلى ما يأتي:

١- عناصر الدرس. وتضم العناوين الرئيسة لمحتوى شرح الباب - أو الأبواب المشتركة في موضوع ما -، وهو أشبه بالفهرس الإجمالي، وفائدته: إعطاء صورة إجمالية لمضمون الباب.

٢- إدراج رسوم شجرية وأشكال توضيحية لبعض المسائل المهمة.

٣- ذكر بعض الفوائد المهمة من شرح الباب، والتي تستحق التنويه والإبراز.

٤- ختم الباب بأسئلة وتمارين؛ لقياس مستوى تحصيل الطالب بعد دراسة الباب.

وهذه الأمور الأربعة قام بها في الأصل الفريق الذي عمل على تفريغ الشرح في (شبكة منبر التدبر)، ثم جرى التعديل عليها بالحذف والإضافة.

الثانية: نسخة الشرح:

وتضم شرح الكتاب كاملا محققا مراجعا منقحا، دون ذكر للأمور الأربعة المذكورة في «النسخة التعليمية».

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يمُدَّنا بتوفيقه وعونه وتسديده، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، هو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *